المقدمة

هذا البحث محاولة لدراسة الأوضاع الاجتماعية والإدارية في الشام منذ الفتح حتى سقوط الخلافة الأموية، وقد دفعني إلى اختياره إهمال المؤرخين لدراسة أوضاع الشام في هذه الفترة، بينما حظيت الولايات الأخرى، لا سيما العراق ومصر، باهتمام الباحثين. وبالرغم من كثرة المؤلفات التي تبحث في الشام بشكل عام، فانها كثيراً ما تتخطى هذه المرحلة على أهميتها؛ فولاية الشام احتلت في هذه الفترة بالذات مكانة عظيمة، ولذلك فان سقوط الأمويين لم يكن معناه زوال أسرة وقيام أسرة غيرها في الحكم فحسب، بل زالت بسقوطهم عظمة إقليم الشام الذي كان يحتل مركزاً استراتيجياً هاماً في الدولة الاسلامية أثّر كثيراً في توجيه النشاط الاقتصادي والسياسي والحربي. وبقيام دولة العباسيين، انتقل مركز الاسلام إلى الشرق، إلى

obeikandl.com

بغداد، عاصمتهم الجديدة، وأخذوا يؤقلمون سياستهم على أساس هذا الوضع الجديد، ومن ثم كان لذلك نتائجه البعيدة المدى.

لم يكن إعداد هذه الدراسة ليخلو من المصاعب، إذ أن تقديم صورة للوضع الاجتماعي والإداري للشام في فترة صدر الاسلام اقتضى جمع كل الشذرات والنبذ المتناثرة في بطون المصادر على أنواعها ثم سد الثغرات بالاستنتاج المنطقي أو بالقياس إلى ما كان يطبق في الولايات الأخرى؛ فالشام جزء من الدولة الإسلامية، وبالرغم من أن جغرافية كل منطقة وأوضاعها الاجتماعية والإدارية السابقة قد لعبت دورها في إيجاد نوع من التمايز بين ولاية وأخرى، فان القواعد العامة تكاد تكون واحدة تقريباً. ونظراً لأن بحثي السابق كان يتعلق بإدارة الولايات بشكل عام، فان هذا قد مهدّ وساعدني على إعطاء صورة شاملة مكنتني من إجراء مقارنات، بين الحين والآخر، لاظهار أوجه الشبه أو الاختلاف بين الأوضاع الاجتماعية والتنظيمات الإدارية المطبقة في الشام وتلك التي كانت مطبقة في الولايات الأخرى.

يتناول القسم الأول من بحثي طبقات المجتمع ودورها في الإدارة والحكم وتوطيد حكم بني أمية، ولذلك كان لا بد لي في الفصل الأول من أن أبحث في العناصر السكانية التي كانت في الشام قبل الفتح ومناطق

تواجدهم، من عرب وروم ويهود وسامرة وفرس وجَراجِمة ونَبَط. ولقد تبيّن لي أن مصادرنا العربية تذكر أسماء بعض القبائل، الّا أن هناك أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة غير مذكورة، لأنه لم يكن لعلماء الأنساب علم بها، وأعني بذلك القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية والقبائل التي دوّنت تلك الكتابات، فهي كتابات عربية وإن اختلفت عن عربيتنا، فقد سئل أحد علماء العربية عن لسان حمير، فقال: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا»، ولكن هؤلاء العلماء لم يتنصلوا من عروبة حمير ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان مخالف للساننا. وقد ألقت المكتشفات الأثرية الأضواء على كثرة وجود العرب في الشام ليس في الجنوب وعلى مشارف البادية فقط، وإنما في مناطق داخلية وإلى الشمال. بالإضافة إلى العرب وجد بالطبع الروم ومرتزقتهم في مدن الساحل والمدن الداخلية الهامة، كإيلياء وبصرى ودمشق وحمص وتدمر، ثم اليهود والسامرة في فلسطين والأردن، والفرس في بعلبك وحمص وأنطاكية، والجراجمة في منطقة اللُّكام، وأخيراً تلك الطبقة التي يطلق عليها المؤرخون العرب لفظ العلوج أو النبط والتي تشير النصوص إلى كثرتهم في الأرياف والمدائن، كما أن النصوص المبعثرة في المصادر تحوي قرائن مثل الأرض والقرى والزراعة، وكلها تدل على أن المقصود بالنبط طريقة الحياة وليس النسب، وان كان البعض يعتبرونهم من بقايا الشعوب القديمة التي

سكنت بلاد الشام والعراق ومترسبات الآراميين، وليس من المستغرب أن يكون قد اندمج فيهم الكثير من العرب الذين سكنوا هذه المناطق وبادت أسماؤهم. ولقد حاولت أن أتبين نسبة هذه العناصر السكانية بعضها إلى بعض، فلم أوفق، لأن الروايات لا تهتم إلاّ بذكر أعداد المقاتلة من جهة، ولأن التفاوت في الروايات حول هذه الأعداد كبير جداً، وان كان قد ظهر أن العرب كانوا نسبة سكانية لا يستهان بها في المنطقة، وأن الروم البيزنطيين قد اعتمدوا عليهم في الوقوف في وجه العرب المسلمين، وأن هؤلاء العرب قد أيدوهم في كثير من المواقف، بينما تشير الروايات إلى أن العرب استخدموا النبط كجواسيس وكفيوج لأنهم كانوا إلى المسلمين لبرّهم أميل، وكان الروم لا يتهمونهم في شيء من ذلك. ولكن موقف العرب وموقف غيرهم من سكان الشام النصارى لم يكن موقفاً جامداً، لاسيما بعد أن أمسك العرب بزمام الموقف، وتبيّن لهم حسن المعاملة التي كان يلقاها من يدخل ذمتهم.

فاذا أتينا إلى توزع العناصر السكانية في الشام بعد الفتح، وهو ما بحثته في الفصل الثاني، فإن مما يسترعي انتباه الباحث حين يتتبع حركة الهجرة القبلية أن القبائل لم تسر في هجرتها وفق خطة موضوعة تحدد لكل قبيلة خط سيرها وموطن نزولها، وذلك لارتباط هذه الهجرات أول الأمر بحركة الفتح، وهذا يفسر لنا نزول بطون القبيلة

الواحدة مواطن شتى ، ومن ثم كان لهذه الهجرات الجماعية ولا ستيطان قبائل العرب الأمصار المحدثة والأقطار المفتوحة آثار بعيدة المدى في حياة العرب الاجتماعية عامة وفي المجتمع القبلي خاصة ، ومن أبرز هذه الآثار اتساع نطاق التجمع القبلي في إطار روابط النسب الواسعة ، كالعدنانية والقحطانية والمضرية والربعية ، ومنها تصدع الوحدة القبلية ، لأن القبيلة الضخمة العدد، قلّما كانت تنزل برمتها في موطن واحد .

وكانت جيوش المسلمين ، التي قدمت لفتح بلاد الشام ، نواة القبائل التي استوطنت الشام ، وليس بين أيدينا احصاء تاريخي دقيق يرشدنا إلى معرفة القبائل التي نزلت بلاد الشام وعددها عند الفتح وبعده ، إلّا أننا نستطيع استخلاص إحصاء تقريبي لها عن طريق تتبع جيوش الفتح والامدادات ، واعتماداً على أخبار الوقائع التي جرت بين المسلمين إبّان الفتنة الأولى والثانية والثالثة .

ويظهر أن عدد القبائل كان يتزايد منذ نزولها بلاد الشام تزايداً سريعاً ، فقد كان عدد المسجلين في ديوان العطاء بدمشق في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك خمسة وأربعين ألفاً ، وبلغ أهل دمشق من العرب أربعة وثمانين ألفاً في سنة ١٢٦ هـ ، ومقاتلتهم خمسين ألفاً ، وكان عدة بني عامر من كلب عشرين ألف رجل . ولا شك أن هذه الأرقام لا تمثل العرب الوافدين إلى الشام وحدهم ، وإنما تمثل

أيضاً من انضم إليهم من العرب الذين كانوا ينزلون هذه البلاد قبل الفتح ثم أسلموا وانضموا بعد إلى جيوش المسلمين .

ومن دراستنا لتوزع العناصر السكانية في بلاد الشام بعد الفتح ، يتبين لنا أمور ثلاثة ، أولها أن العنصر العربي قد أصبح الغالب بعد هجرة الروم ، بحيث أن اليعقوبي الذي زار هذه المنطقة في القرن الثالث لا يذكر الروم على الاطلاق ، وإنما يطلق اسم العجم عليهم ، ولا نجد لهم ذكراً في الأجناد الشمالية في دمشق وحمص وقنسرين ، وإنما في جندي الأردن وفلسطين ، وثانيها أن قبائل قضاعة واليمن تستوطن الجانب الأكبر من الشام ، فجلّ أهل حمص كانوا يمانية قضاعية ، ولكثرتهم في جند حمص ضرب المثل بذلة القيسي فيها ، كما أنهم تواجدوا بكثرة في جند دمشق والأردن وفلسطين . أما مواطن قيس ، فكانت في قنسرين ، بالإضافة إلى وجود قلة منهم في مدينة دمشق وفي الغوطة وحوران والغور والجولان . ولما كانت قضاعة وكلب خاصة هما أضخم الكتل القبلية في بلاد الشام في العصر الأموي ، كان انحياز هذه الكتلة إلى أي حزب سياسي خليقاً بترجيح كفته وبمنحه تأييداً حربياً وسياسياً له شأوه ، وكذلك كان انحياز هذه القبيلة إلى إحدى الكتلتين العدنانية والقحطانية خليقاً بترجيح كفتها العددية وباختلال ميزان القوى القبلية ، ومن هنا احتدم النزاع حولها

وتجاذبتها العدنانية والقحطانية، وقام نسّابو كل من الكتلتين والأخباريون فيهما بمحاولات كثيرة منذ مستهل العصر الأموي حتى منتصف العصر العباسي في ضم هذه القبيلة إلى شجرتهم النسبية، أما الأمر الثالث، فانه نظراً لعدم تجاوب أهل الساحل في بادىء الأمر لتأثرهم بالصبغة الرومية، فقد اضطر معاوية إلى نقل قوم من الفرس إلى سواحل الأردن وصور وعكا وإلى أنطاكية، كما أسكن معاوية جماعة كبيرة من يهود الأردن طرابلس، ثم اقطع عبد الملك فرس بعلبك الخمس في مدينة طرابلس، ولذلك فانه مما يثير الانتباه، أن سكان كور جند دمشق الساحلية معظمهم من الفرس واليهود، في حين يشكل العرب الأكثرية الساحقة في مدن جند حمص الساحلية.

في الفصل الثالث، بحثت في طبقات المجتمع الشامي ووضعها الاجتماعي ودورها في الإدارة والحكم، فتوضح لي أن عاملين اثنين كان لهما دور هام في بادىء الأمر في تحديد المكانة الاجتماعية للعرب المسلمين في الشام، وهما عامل العطاء منذ فرضه الرسول ونظمه عمر بن الخطاب، وعامل صحبة الرسول ونصرته في دعوته، وما كان من أثره في نشأة طبقة الصحابة التي انشطرت بدورها شطراً اتجه إلى المعرفة والعلم وشطراً اتجه نحو السياسة والحكم، فقد عاش صحابة الرسول في ذاكرة الجماعة الاسلامية ووجدانها على أنها امتداد لحياته الشريفة وتمثيل

لها وتعبير عن دعوته وتجسيم لهذه الدعوة لاسيما أن عددهم، حسب ما ورد في كتاب الطبقات، كان ١١٣ صحابياً. ويبدو أن جند حمص بالذات كان ملتقى لأصحاب الرسول حتى كان يسمّى الجند المقدّم، وكان لخروج هذا العدد الكبير من الصحابة مجاهدين وتوزعهم في الأجناد دور كبير في ارساء قواعد الدين وتفقيه الناس وتعليمهم دينهم وسننهم، فكانوا أساتذة لمن خلفهم، كما أن عمر بن الخطاب اتبع في الشام سياسة خاصة لنشر الدين، وهي بناء مسجد في كل مكان فيه كنيسة.

وكان للصحابة كذلك المراتب القيادية في حركة الفتح في الشام والجزيرة، وقد جعل معاوية أثناء ولايته للشام والجزيرة ولاته على الأجناد من قادة الفتوح من الصحابة وأبنائهم، إلا أنه كان من نتيجة معركة صفين أن ازداد نفوذ القبائل اليمانية التي نصرت معاوية، مما دفعه في عهد خلافته إلى انتقاء ولاة الأجناد من زعماء القبائل حسبما يتوفر لهم من استقرار وكثرة، ولكن معاوية في الوقت نفسه لا ينقاد لليمانية تماماً، لأنه استطاع بمصاهرته لقبيلة كلب أن يحقق نوعاً من التوازن.

وبالرغم من أن سادات القبائل وأشرافهم بقيت لهم مكانتهم في العهد المرواني، إلاّ أن اخراج الأمويين وشيعتهم من المدينة ومكة وتوجههم إلى الشام سنة ٦٤ هـ ومعركة مرج راهط ومانجم عن ذلك من احتدام العصبيات، دفع

خلفاء الفرع المرواني، باستثناء عمر بن عبد العزيز، إلى الاعتماد على أمراء البيت الأموي في شؤون إدارة وحكم الأجناد وقيادة الحملات، لاسيما الصوائف والشواتي، وأصبح أفراد البيت الأموي يتمتعون بامتيازات متعددة لم يكونوا يتمتعون بها في العهد السفياني.

ومن دراستي لسير ولاة بني أمية الشخصية، تبيّن لي أن الفترة المروانية تميزت بازدياد اعتماد الخلفاء اما على أمراء من الفرع المرواني أو على ولاة من أهل الشام لإدارة الولايات ذات الأهمية الكبرى، وأظهرت مدى ما حققه هؤلاء الولاة في ميدان الإدارة والتنظيم الإداري، فكأنّ الشام كانت المدرسة التي يتم فيها هذا التدريب، إذ أن معظم التنظيمات الإدارية الهامة في العراق ومصر وافريقيا تمت في الواقع على يد ولاة من أهل الشام سواء من العرب أو الموالي فيما بعد.

أما فكرة العطاء فقد عاشت رمزاً للمكانة الإجتماعية وتعبيراً عن السابقة إلى النصرة، ثم تعبيراً عن الشجاعة والبلاء في تلك الحروب الخطيرة التي ساهموا فيها. وكان شرف العطاء في العهد الراشدي يمنح لمن يقوم ببعض الأعمال الإدارية أو القيادية أو من يبدي بسالة في الحروب. وقد استمرت هذه القواعد في العصر الأموي، إلّا أن عامل الدعم لمعاوية وللحكم الأموي في الشام أصبح عاملاً أساسياً. وبالرغم من أن مقدار ما كان يدفع في

شرف العطاء لم يكن بالدرجة التي تجعل ممّن يأخذه غنياً، إلاّ أنه كان يعتبر شرفاً عظيماً يستحق التسجيل.

وكان لعامل العطاء دوره كذلك منذ البدء في تحديد المساواة بين العرب المسلمين والموالي، وقد اتضح لي من دراسة الروايات المتعلقة بهم في الشام أنه كانت لهم مكانة تكاد توازي مكانة العرب المسلمين. صحيح أن مجموعة كبيرة من هذه الروايات متعلقة بموالي بني أمية، وهم موالي عتاقة، إلا أن هناك روايات أخرى متعلقة بالموالي بشكل عام، وكان هؤلاء يعاملون بكل احترام وتقدير، ويفرض لهم في العطاء، ويتم تسجيلهم في الديوان. وقد ازداد اعتماد الخلفاء في الفترة المروانية على الموالي سواء في الدواوين أو الإدارة، وفي هذا دليل على المكانة التي كانت لهم وعلى ازدياد من دخل في الاسلام من سكان الشام من غير العرب أو من الرقيق. ثم انتقلت بعد ذلك إلى الحديث عن أهل الذمة، وميّزت بين وضع العرب النصارى، والنصارى من غير العرب، كما أوضحت سياسة التسامح تجاه أهل الذمة ومدى حقوقهم وواجباتهم، وصلة المسلمين بهم، وموقف الدولة من اليعاقبة والملكانيين أو الملكيين، وعوامل هذا الموقف. كما ناقشت قضية الشروط العمرية المتعلقة بملابس أهل الذمة، ثم بيّنت مدى اعتماد خلفاء بني أمية عليهم في الإدارة وتناقص هذا الاعتماد تدريجياً، نتيجة لتدابير الخليفة عمر بن عبد العزيز من جهة وازدياد من دخل في الاسلام من جهة أخرى.

ومن الطبيعي أن أتطرق إلى الرقيق ووضعهم الاجتماعي في الشام، لاسيما أن أعدادهم تضخمّت نتيجة للفتوح وارسال الخمس إلى دمشق، مما اقتضى ايجاد موظف خاص مسؤول عن أمور الرقيق بدءاً من خلافة سليمان بن عبد الملك، وأشرت إلى الأعمال المختلفة التي كان يكلف بها العبيد عامة، ورقيق الخمس خاصة، وبالرغم من أنه ليست بين أيدينا روايات تلقي ضوءاً على مستوى حياة الرقيق والمعاملة التي كانوا يلقونها من سادتهم في الشام، فان أمراء بني أمية وولاتهم كانوا يعتقون الكثير من رقيقهم، وكثرة الموالي لدى خلفاء وأمراء بني أمية كلها دلائل تشير إلى ذلك.

في الفصل الرابع بحثت في دور أهل الشام في توطيد سلطان بني أمية، إذ أن أهل الشام كانوا القاعدة المتينة والجبهة المتراصة التي كان الحكم الأموي يقوم عليها، وكل اختلال في هذه الجبهة كان يعرض الحكم الأموي للخطر، وقد أظهرت مدى دعمهم لمعاوية ثم لمروان بن الحكم وعبد الملك من بعده، وموقفهم من الفتنة الثالثة، وكيف أن خذلانهم لمروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية كان من الأسباب الهامة والأساسية في سقوط الحكم الأموي، وأشرت إلى العوامل التي أدّت إلى دعمهم لخلفاء بني أمية بشكل عام وإلى خذلانهم لمروان بن محمد. ثم أشرت إلى ازدياد اعتماد ولاة العراق، خاصة في الفترة

المروانية، على القوات الشامية في قمع الحركات الخارجية والشيعية أو في الثورات الأخرى، كثورة ابن الأشعث ويزيد بن المهلب، وكان لذلك نواح ايجابية وأخرى سلبية.

أما في الفصل الخامس، فقد أظهرت دور أهل الشام في الفتوح ولا سيما فتوح أرمينية واللاّن وبعض مناطق بلاد الخزر، وفي فتوح عدد من جزر البحر المتوسط وفتوح شمالي افريقية، واشتراكهم كذلك في فتوح السند مع محمد بن القاسم الثقفي، وفي فتوح جُرجان بقيادة يزيد بن المهلب. وهنا لا بد من الإشارة إلى أن الفضل في تحقيق الفتوحات في المشرق يعود بشكل عام إلى مقاتلة الكوفة والبصرة.

يتضمن القسم الثاني من رسالتي الإدارة في الشام. وقد بحثت في الفصل الأول منه النظام الإداري وتقسيم الشام إلى أجناد، وأسباب هذا التقسيم ومدى تأثره بنظام البنود البيزنطي، وانقسام هذه الأجناد إلى كور، وكون مراكز هذه الأجناد كلها مدناً داخلية، ثم اتبعته بالحديث عن أهم الموظفين الإداريين ابتداءا من الخليفة، الرئيس الإداري الأعلى، وأظهرت مدى التغيير الذي طرأ على مفهوم الخلافة ونوع المسؤوليات التي كانت ملقاة على عاتق الخليفة، ثم انتقلت إلى المستشارين أو الوزراء فولاة الأجناد فالكتاب وأصحاب الشرط والبريد والقضاة، فبينت القواعد التي اعتمد عليها الخلفاء في انتقائهم

والمهمات والواجبات التي كانت توكل إليهم مع اظهار الفروق في هذه الواجبات التي كانت ملقاة على عاتق هؤلاء الموظفين في العراق ومصر، وبين تلك التي كانت ملقاة عليهم في الشام لكونها الولاية المركزية ومستقر الخليفة.

وبالرغم من أنني كنت قد تحدثت عن الدواوين بشكل عام في بحثي عن إدارة الولايات في العصر الأموي، فانني هنا ركزت اهتمامي على الدواوين المتواجدة في الشام، ذلك أنه بالإضافة إلى الدواوين الأساسية التي كانت في الأمصار، ظهرت في الشام دواوين خاصة، كديوان المستغلاّت وديوان الزمني وديوان الرقيق والنفقات. وبالرغم من عدم ذكر ديوان للذراري في الشام، فلا شك أنه كان موجوداً، وان لم يذكر ذلك صراحة، لكثرة الروايات المتعلقة بعطاء الذراري في الشام.

وقد حاولت في الفصل الثاني عند البحث عن النظام المالي في الشام أن أشير إلى أن بعض الضرائب والتدابير العملية، مثل الجزية فردية ومشتركة، والعشر والزكاة ومعاملة الأراضي العربية في عهد الرسول كان لها أثرها على نظام الضرائب الذي طبق. كما أن نظامي الضرائب اللذين وجدهما العرب في الأراضي المفتوحة قد استعملا مصطلحات ولكنهما طبّقا وفقاً للمفهوم الاسلامي. ثم ان مما يثير الانتباه أننا لا نكاد نجد فقيها

مسلماً واحداً يؤكد وحدة التطبيق في كل أطراف الدولة الاسلامية، بل ان الروايات تشير إلى العكس من ذلك، وتحاول أن تظهر الاجراءات التي طبقت في الولايات المختلفة، ولا تحاول مطلقاً تقديم صورة لنظام موحّد في كل أجزاء الدولة الاسلامية. فالاجراءات التي تمت أثناء الفتح لم تكن واحدة، لأنها تأثرت بالأوضاع المحلية، ولذلك كان لابد لي عند دراستي للنظام المالي في الشام من أن أعود إلى النظام المالي البيزنطي الذي كان مطبقاً لأبرهن أن نظامي الضرائب في الشام استعملا مصطلحات فقط، أما التطبيق فكان وفقاً للمفهوم الاسلامي. كما أنني عمدت إلى دراسة أحداث الفتح حتى يختفي ذلك التناقض الذي قد يبدو لأول وهلة عندما ندرس الروايات المختلفة المتعلقة بعهود الصلح، وقد نصت المعاهدات التي عقدت مع مدن الشام والجزيرة بوضوح على وجود جزية وخراج، فبحثت في الجزية ومقدارها وممن أخذت ومن أعفي منها، وإلى التعديل الذي أحدثه عمر بن الخطاب بعد ذلك في مقدارها، ثم إلى التعديل الثاني في خلافة عبد الملك بن مروان. أما الخراج فان الروايات المتعلقة بالشام في هذا الصدد قليلة، ولذلك اضطررت إلى الاعتماد على الاجراءات التي تمت في العراق لايضاح بعض الأمور، لا سيما عندما تكون لدى المؤشرات التي تسمح لي بأن أقيس ماحدث بالشام بما حدث بالعراق. وكذلك اعتمدت على الروايات الخاصّة بالعراق، فيما يتعلق بأراضي الصوافي في الشام

وموقف عمر بن الخطاب منها، وهي تختلف في الواقع عما يرد في كتب بعض الفقهاء كأبي يوسف الذي يعكس وضع الصوافي في العصر الأموي، كما تعرّضت إلى الضرائب الإضافية في الشام وقارنت بينها وبين تلك التي أضيفت في العراق ومصر، فتبين أن هذه الضرائب في الشام هي التي نصت عليها المعاهدات التي عقدت أثناء الفتح، في حين أن الضرائب في المشرق ومصر أضيف بعضها في العصر الأموي.

وجد في الشام في العصر الأموي بيت مال خاص لأموال الفيء وآخر للصدقات، وهناك رواية تشير إلى أن عمر بن عبد العزيز أوجد بيت مال خاص للخمس، فتكلمت عن الأموال التي كانت ترد بيت مال الفيء ومقدار ما كانت ترسله الولايات المختلفة من فائضها إلى دمشق، وموقف العراق خاصة من هذا الفائض، وهذا بدوره يفسر لنا كثرة الأموال التي كانت ترد من جهة وعدم حاجة الخلفاء إلى فرض ضرائب إضافية على أهل الشام الذين تمتعوا في هذه الفترة بميزات لم يتمتع بها غيرهم من سكان الولايات الأخرى.

وكان لابد لي أثناء الكلام عن النظام المالي أن أبحث في النقود المتداولة وإلى تعريب النقد ولاسيما الدينار الذي كان يتم سكه في دمشق خاصة، وقد تبيّن لعلماء الآثار أن الدنانير الأموية العربية الصافية في إفريقية قد ضربت في

دمشق لصالح المغرب بعكس الدراهم، حيث استمر الولاة بضرب الدراهم حتى خلافة هشام بن عبد الملك الذي أمر خالد بن عبد الله القسري والي العراق سنة ست ومائة أن يبطل السكك من كل بلدة إلاّ واسطاً، وكذلك فعل يوسف بن عمر الثقفي، فلما استخلف مروان بن محمد ضرب الدراهم بالجزيرة بحرّان.

لا شك أن اصلاح عبد الملك للنقد وايجاده نقداً قومياً عربياً كان بمثابة حجر الأساس للنهضة التجارية الاسلامية، ولكن كان لعمله بالمقابل أثر فعال على العلاقات البيزنطية العربية وعلى اقتصاد الشام ومصر بشكل خاص، ذلك أن البيزنطيين عادوا إلى تطبيق القيود التجارية التي كانت مطبقة سابقاً أثناء صراعهم مع الساسانيين، في حين لم يعمد خلفاء بني أمية إلى تطبيق مثل هذه القيود على التجار المسلمين في تعاملهم مع البيزنطيين. فبيزنطة لم يكن باستطاعتها أن تتخلى عن منتجات العالم العربي، كما أن التوابل وبضائع الشرق التي كان يتاجر بها التجار العرب هي مواد أساسية في حياة بيزنطة الاقتصادية، لذلك سمح حكام بيزنطة لمرفأ أو مرفأين مراقبين من استقبال التجار المسلمين منهما طرابزون (Trebizond) الذي كان يسمح فيه بادخال كل التجارة العربية مع بيزنطة. واختيار طرابزون كمركز للتجارة العربية البيزنطية كان يحقق عدة أهداف لحكام بيزنطة، فطرابزون

مرفأ أمين على البحر الأسود غير مهدد، وباتخاذهم طرابزون محطة نهائية للتجارة العربية، سحبوا تجارة الحرير والتوابل التي كانوا بحاجة ماسة إليها من مصر والشام، المركزين البحريين لمنافسيهم الأمويين، إلى بلاد العراق التي لم تكن تشكل خطراً عليهم. فاذا أضفنا إلى ذلك قوة الأسطول البيزنطي الذي خرج منتصراً سنة ١٠٠ هـ وأخذ يمخر عباب البحر المتوسط ويقطع بشكل فعّال التجارة ليس مع الغرب فقط، وانما بين الشام ومصر وشمالي افريقيا، ثم انتقال الحكم إلى العباسيين حيث أصبحت العراق الولاية المركزية التي يمر بها الخط التجاري المتوجه نحو طرابزون، نجد أن الشام خسرت مكانتها كمركز للخلافة الاسلامية من جهة، كما خسرت من جهة ثانية مركزها التجاري الهام وبقيت بعد سنة ١٣٥ هـ/٧٥٢م عاجزة مدة عشرين عاماً عن تشكيل اسطول لها، وهذا أثّر بدوره على فرنسا التي كانت تعتمد في حياتها الاقتصادية على التجارة مع الشام ومصر، إذ مرّت بفترة ركود إقتصادي بعد سنة ٩٨ هـ/٧١٦م، فلم تعد ترى تجاراً سوريين في موانئها التجارية أو تجاراً من مناطق اسلامية أخرى.

آخر فصل في البحث يتعلق بالتنظيم العسكري البري والبحري، حيث تحدثت عن عناصر الجيش من عرب وموالي وإلى نسبهم في هذا الجيش، وظهور فرق للموالي في الفترة المروانية، كالوضاحية والذكوانية والمحمرّة

وغيرهم، وإن كانت نسبتهم أقل بكثير من نسبة المقاتلة من العرب. ثم تطرّقت إلى التعبئة ومفهومها، والقيادة والقواعد التي كان يعتمد عليها الخلفاء في تعيين قوّادهم، كما تحدثت عن الأسلحة ووسائل الدفاع والتحصين في الشام وأظهرت مدى التقدم السريع الذي أحرزه المسلمون ولاسيما مقاتلة أهل الشام في هذا المضمار، وأنهيت البحث بالتنظيم المالي للجيش، وهو تنظيم قائم على أسس اسلامية، وخلصت من بحثي هذا إلى أن الجيش الشامي كان أشبه ما يكون بالجيش النظامي لأن مقاتلته كانوا على أهبة الاستعداد دائماً طيلة خلافة بني أمية، فالغزوات في الجبهة الشمالية كانت متواصلة تقريباً، بالإضافة إلى الصوائف والشواتي التي كانت مستمرة، فاذا انقطعت فمعنى ذلك انشغال المقاتلة بقمع فتنة. ولا شك أن هذا النظام الذي ظلّ معمولا به طيلة خلافة بني أمية كان عبارة عن تمرينات ومناورات جماعية جعلت مقاتلة الشام أكفأ المقاتلين، حتى أن ليون الأيسوري نفسه يبين أن البيزنطيين في حروبهم لم يواجهوا عمليات حربية حصيفة ومحكمة ومدروسة كخطط العرب، وأن القائد المكلف بمواجهتهم كان يحتاج إلى قدراته الاستراتيجية، كما أن الفرق التي يقودها يجب أن تكون انضباطية وجريئة إذا أراد أن ينجح في صدّ العرب.

تحليل المصادر

إن دراسة الأوضاع الاجتماعية والإدارية في الشام في صدر الاسلام اقتضت دراسة معمقة ودقيقة للمصادر على أنواعها التاريخية منها (كتب التاريخ العام والمحلي، والطبقات والتراجم والأنساب) والأدبية والجغرافية، بالإضافة إلى كتب الفقه ولاسيما كتب الخراج؛ وبالرغم من أن كل صنف يركّز على ناحية معينة، إلاّ أنه لا يهمل النواحي الأخرى، ولذلك فقد أمكنني الافادة من مختلف المصادر، ولو جزئياً، في كل موضوع من مواضيع الرسالة، وان لم تكن نسبة الفائدة واحدة.

يجد الباحث المدقق في الكتب التاريخية العامة، رغم تركيزها على النواحي السياسية معلومات ذات قيمة كبيرة في النواحي الإدارية والاجتماعية والمالية، كما أنها تتناول بشكل واسع القبائل التي اشتركت في الفتح واستقرارها في الأمصار. وقد تميّز الطبري (ت ٣١٠ هـ) في تاريخه بكثرة المعلومات الهامة التي أفادتني في مناحي البحث كله، سواء في الاشارة إلى أماكن استقرار القبائل قبل الفتح وبعده أو في عرض الأوضاع الاجتماعية للعرب المسلمين والعوامل التي أثّرت في تحديد مكانتهم، كما أنه حوى معلومات مفيدة عن الأرض والصوافي ونظرة القبائل تجاهها، والخطوات الأولى التي اتخذها عمر بالنسبة للأرض، كذلك تضمن تاريخه معلومات عن الديوان

والعطاء والتعبئة العسكرية وعناصر الجيش والقيادات والأسلحة التي استخدمها العرب أثناء الفتح وبعده في العصر الأموي، ولا يقل كتاب فتوح البلدان وكتاب أنساب الأشراف للبلاذري (ت ٢٧٩ هـ) أهمية وقيمة، فقد أفادت المعلومات الواردة فيهما البحث في جميع فصوله، لاسيما وأن البلاذري في كتابه فتوح البلدان، يتميز بالاهتمام الزائد في النواحي الإدارية والمالية، ويورد عنها أخباراً كثيرة غير مذكورة في المصادر الأخرى. وما دمنا في صدد الكلام عن كتب الفتوح، فلا بد من التعرّض لكتاب الفتوح لأحمد بن أعثم الكوفي (ت ٣١٤ هـ/٩٢٦ م)، إذ يعتبر كتابه من أقدم الكتب التاريخية التي ألّفت عن القرنين الأول والثاني الهجريين، ولذلك فهو لا يعطي فقط روايات تاريخية عن الأحداث المختلفة، ولكنه برواياته يعتبر مصدراً تقاس عليه روايات من سبقه أو عاصره من المؤرخين، كالبلاذري والطبري واليعقوبي والمسعودي والدينوري وغيرهم، وبمقارنة الروايات يمكن الوصول إلى فكرة أوضح عن الأحداث التاريخية ذات العلاقة بالموضوع.

ومن مصادر التاريخ الهامة كذلك كتاب تاريخ خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) الذي أغنى البحث بالقوائم التي يوردها بأسماء الدواوين المركزية وموظفيها، وكذلك القضاة ورؤساء الشرطة وولاة الأجناد في نهاية عهد كل خليفة أموي. وهذه القوائم تسترعي انتباه دارسي

الأحوال الإدارية، وقلما نجد مثل هذا الاهتمام بالإدارة من قبل مؤرخي الأحوال السياسية.

وضمّت مؤلفات الدينوري (ت ٢٨٢ هـ) واليعقوبي (ت ٢٨٤ هـ) والمسعودي (ت ٣٤٥ هـ) معلومات هامة تختلف عما أورده الطبري والبلاذري، وهذا يدل على أنهم استمدوا معلوماتهم من مصادر مختلفة، ولكن عدم ذكرها للأسانيد يجعل من الصعب تعيين هذه المصادر.

وتناول ابن سعد (ت ٢٢٠ هـ) في كتابه الطبقات الحديث عن الصحابة والتابعين الذين أقاموا في الشام ودورهم في نشر الاسلام وارساء قواعده، كما أن الروايات الواردة في ترجمة عمر بن عبد العزيز أمدّت البحث بمعلومات قيمّة عن تدابير عمر بن عبد العزيز في مختلف المجالات، لاسيما المالية منها والمتعلقة ببيوت الأموال في دمشق، وبالعطاء وخاصة عطاء الأسرى، والغائبين ومفاداة الأسرى.

ولكتب التاريخ المحلي قيمتها لأنها تعبر عن الرباط الوثيق الذي يربط الناس بمكان مولدهم ولأنها تورد حوادث محلية قد يهملها المؤرخون الذين يهتمون بالحوادث العامة والتي تعطي مع ما لدينا من معلومات صورة أعمّ وأشمل، إلاّ أن الباحث في التواريخ المحلية تواجهه عراقيل متنوعة منها عدم وجود تواريخ محلية لكل الأقاليم أو المدن الاسلامية،

فلم تكن كل المدن الاسلامية محظوظة مثلاً، مثل دمشق أو حلب، بحيث تيسّر لتاريخها أن يكتب على يد أحد أبنائها أو الساكنين فيها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فان بعض التواريخ المحلية لها صفة كتب (التراجم) أكثر من صفة (التاريخ)، وأشهر مثل على ذلك كتاب بغية الطلب لابن العديم، وتاريخ دمشق لابن عساكر؛ وليس بخاف أن البحث عن المعلومات التاريخية المتناثرة بين طيات هذه الكتب يحتاج إلى وقت طويل وجهد كبير.

وتأتي أهمية كتب الفقه من عنايتها بالضرائب والشؤون الاقتصادية والإدارية والاجتماعية. ومن المصادر الفقهية التي أغنت البحث بشكل جليّ، كتب الخراج ككتاب الخراج لأبي يوسف (ت ١٨٢ هـ)، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم (ت ٢١٣ هـ)، وكتاب الأموال لأبي عبيد (ت ٢٢٤ هـ)، والأحكام السلطانية للماوردي (ت ٤٥٠ هـ)، بالإضافة إلى بعض المصادر الفقهية الأخرى، كالمدونة لمالك بن أنس (ت ١٧٩ هـ)، وكتاب الأم للشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، والمسند لابن حنبل (ت ٢٤١ هـ)، وجامع المسانيد لأبي حنيفة (ت ١٥٠ هـ)، وكتب الخراج والفقه هذه تقدم مادة تاريخية واسعة ذات أهمية وفائدة خاصة تنفرد بها عن غيرها من المصادر، لاسيما إذا انتبه الباحث إلى أن الفقهاء بشكل عام لا يراعون في تقديم مادتهم التطور التاريخي، كما

أنهم لا يراعون النواحي الجغرافية، مما يخلق الارتباك وتعدّد الآراء. هذا ما نلاحظه مثلاً في الروايات التي يوردها أبو يوسف أو أبو عبيد أو يحيى بن آدم والمتعلقة بالاجراءات التي اتخذها عمر بن الخطاب بشأن السواد أو بشأن تحديد الجزية، ويعود السبب في ذلك إلى أن اهتمام الفقهاء موجّه بالدرجة الأولى إلى السوابق التي يفيدون منها لوضع تعاليم أو قواعد فقهية مبنية على التدابير والاجراءات التي اتخذها الرسول (صلعم) والخلفاء الراشدون ولاسيما عمر بن الخطاب ثم عمر بن عبد العزيز من بعده.

لا يستغنى عن الأدب في كتابة التاريخ الاسلامي لأن المؤرخ الواعي يستنبط من المصادر الأدبية الكثير من حقائق التاريخ، ومن أهم المصادر الأدبية التي استفدت منها كتب الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ/٨٦٨ م)، وابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ/٨٨٩ م)، وأبي الفـــــرج الأصبهاني (ت ٣٥٦ هـ/٩٦٧ م)، وابن عبد ربه (ت ٣٢٧ هـ)، هذا بالإضافة إلى دواوين الشعراء المعاصرين لفترة صدر الاسلام كديوان جرير والأخطل وغيرهما.

وتقدم الكتب الجغرافية عوناً كبيراً ومتمماً في مجال البحث من حيث تحديد منطقة الشام وثغورها وأجنادها وامتداد هذه الأجناد والمدن الساحلية التابعة لكل جند منها والقبائل التي استقرّت فيها بعد الفتح، بالإضافة إلى العناصر السكانية الأخرى، ومن أهم هذه الكتب، كتاب

البلدان لليعقوبي (ت ٢٨٨ هـ)، والأعلاق النفيسة لابن رستة (ت ٢٩٠ هـ)، والمسالك والممالك للإصطخري (ت ٣٢١ هـ)، وكتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم للمقدسي (ت ٣٨٠ هـ/٩٩٠ م).

المصادر الذمية

لا يكتمل البحث في الأوضاع الاجتماعية والإدارية في الشام دون الرجوع إلى أهم مصدر بيزنطي، وهو تاريخ تيوفانس، وبعض المصادر السريانية المترجمة إلى الفرنسية أو الانكليزية أو العربية. وبالرغم من أن هذه المؤلفات قد أمدتني ببعض المعلومات القيمة غير المتوافرة في مصادرنا، إلاّ أنه لا بد من القول بأن المادة المتواجدة في مصادرنا أعمق وأغنى وأشمل. كما أن التعاليل التي ترد في مصادرنا، وان كانت ترد بشكل غير مباشر، فانها تدلّ على فهم للأحداث عميق، بينما نجد تيوفانس والمؤرخين السريان يرجعون الأمور كلها إلى القدرة الالهية وبركة القديسين والأولياء عند الفوز والانتصار، أو إلى الغضب الالهي ونقمة القديسين في حال الفشل والهزيمة.

المصادر التاريخية المتأخرة

يعتمد المؤرخون المتأخرون بصورة عامة على روايات من سبقوهم من المؤرخين الأوائل. إلاّ أن الباحث قد يعثر بين طيات هذه المصادر على روايات فريدة غير واردة في كتب الأوائل، ولذلك فالأجدر بالباحث أن يرجع إلى هذه

المصادر المتأخرة ويدرسها. ومن المصادر المتأخرة التي أغنت البحث كتب ابن الأثير وابن خلدون والمقريزي والذهبي والسيوطي وابن الجوزي والقلقشندي والنويري وغيرهم.

المراجع الحديثة

قدمت المراجع الحديثة، العربية منها والأجنبية، ولاسيما تلك التي تبحث في النظم الاسلامية عامة والأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والمالية خاصة، فوائد جمة لما تضمنته من آراء وتعليقات وتحليلات، وأخصّ بالذكر منها ما كتبه الدكتور عبد العزيز الدوري في النظم الاسلامية سواء في كتابه «مقدمة في التاريخ الاقتصادي العربي» أو في مقالاته عن الاقطاع والضرائب والعرب والأرض في بلاد الشام في صدر الاسلام.

كما اعتمدت على المراجع الأجنبية عند البحث عن العرب في الشام قبل الفتح ومناطق تواجدهم، بناء على ما توصل إليه علماء الآثار، وكذلك في البحث عن النظام المالي في الشام في العهد البيزنطي وفي النتائج الاقتصادية والسياسية الهامة التي نجمت عن تعريب الدنانير. ومن أهم هذه الكتب، كتاب دانيل دينيت عن الجزية والاسلام، وكتاب أوستروغورسكي عن تاريخ الدولة البيزنطية، بالإضافة إلى بحوث كبار المؤرخين المنشورة في المجموعة المعرفة باسم (Byzantium) وفي الموسوعة الاسلامية.

وختاماً أتوجه بالشكر والامتنان للاستاذ الدكتور نبيه عاقل لملاحظاته وتوجيهاته القيمة، كما أتوجه بالشكر إلى عدد من زملائي الأساتذة الكرام في قسم التاريخ وإلى الاستاذ الدكتور وليد عرفات رئيس قسم الدراسات الاسلامية في جامعة لانكستر لما أمدوني به من كتب ومصادر.

وآمل أن أكون قد وفقت بتزويد المكتبة التاريخية ببحث يتناول حقبة تعتبر بحق من أهم فترات تاريخنا العربي الاسلامي.

د. نجدة خماش

openkandl.com

تمهيـــد

الشَأْم والشَأَم والشَآم[1] هو الاسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب على المنطقة التي يحدها بحر الروم من الغرب، والبادية الممتدة من أَيْلَة إلى الفرات، ثم من الفرات إلى حد الروم، وشماليها بلاد الروم، وجنوبيها حد مصر وتيه بني إسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر رَفَح ومما يلي الروم الثغور[2]. أي أن الشام كانت تضم الرقعة التي تشغلها الآن سورية ولبنان والأردن وفلسطين، وتلك كانت بلاد الشام على مدى تاريخ طويل، ولم يتم تقسيمها سياسياً إلى دول أربع إلا بفعل الاستعمار في أعقاب الحرب العالمية الأولى.

---

(١) ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت ط ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م جـ٣ص ص ٣١٢.

(٢) الأصطخري، المسالك والممالك، تحقيق دي غوجه De Geoge ط ١٩٧٢ — ص/٥٥/، ويرى الإصطخري أنه بالرغم من أن بعض الثغور تعرف بثغور الشام وأخرى كانت تعرف بثغور الجزيرة فان كليهما من الشام، لأن كل ما وراء الفرات (ويقصد بذلك كل ما هو غربي الفرات) من الشام. وإنما سمي من ملطيه إلى مرعش

obeikandl.com

وسورية اسم غلب إطلاقه على القطر الشامي منذ عهد قديم؛ قال البكري: «سورية بضم أوله وكسر الراء المهملة وتخفيف الياء اسم للشام[٣]»، وفي فتوح البلدان للبلاذري، أن هرقل لما بلغه خبر أهل اليرموك وايقاع المسلمين بجنده هرب من أنطاكية إلى قسطنطينية فلما جاوز الدرب قال: «عليك ياسورية السلام ونعم البلد هذا للعدو يعني أرض الشام[٤]». ويرى ارنست هرتزفيلد Ernest Hertzfield أن سورية اسم مقتضب من اسم أشورية لغلبة الآشوريين عليه[٥] والسين والشين تتعاوران في اللغات السامية، وقد ظهر اسم سورية لأول مرة عند هيرودوت (٤٨٥ ــ ٤٢٥ ق.م[٦]). ويظهر بشكل Shryn في آداب أوغاريت وسيريون Siryon في العبرية حيث يطلق على لبنان الشرقي[٧]، وفي العصور اليونانية وما بعدها توسع استعمال هذا الاسم وأطلق على البلاد كلها، واستخدم بهذا المعنى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى[٨].

ثغور الجزيرة لأن أهل الجزيرة بها يرابطون وبها يغزون لا لأنها من الجزيرة، أما قدامه بن جعفر فيجعل مرعش والحدث من ثغور الجزيرة، وطرطوس وأذنه والمصيصه من ثغور الشام. قدامه بن جعفر، نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ليدن، ١٣٠٦ هـ ص ٢٥٣.

(٣) محمد كرد علي، خطط الشام، دمشق ١٣٤٣ هـ/١٩٢٥ م ج ١ ص ٤٧.

(٤) البلاذري، فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، مصر ١٩٥٩م، ص/١٤٢/.

(٥) أرنست هرتزفيلد، مجلة المجمع العلمي العربي، مجلد ٢٢ ــ ١٩٤٧ ص ١٧٨، ١٨١، محمد كرد علي، خطط الشام ج ١ ص ٤٧.

(٦) فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان. ج ١ ص ٦٢.

(٧) المصدر السابق ج ١ ص ٦٢.

(٨) The Modern Encyclopaedia, First Edition, 1961 Art. Syria Histoy.

وكانت فلسطين بالنسبة لهيرودوت قسما من سورية[٩] ، واعتبر وليم الصوري وغيره من مؤرخي الحروب الصليبية فلسطين جزءاً من سورية أيضاً[١٠] .

واستخدمت كلمة سوري Syrian بالانكليزية حتى العصر الحديث كتسمية عرقية تشمل سكان سورية كلها ، غير أنها تستعمل الآن للدلالة على رعايا الجمهورية العربية السورية فقط[١١] . وكمصطلح ديني فان إسم سوري يشير إلى أتباع الكنيسة السورية القديمة أو السريانية بفئتيها السريان الكاثوليك Syrian Catholic والسريان الارثوذكس Syrian Orthodox[١٢] .

أما كمصطلح لغوي فان كلمة سرياني Syriac وليس سوري Syrian هي التي تشير إلى الفئة التي تتكلم السريانية[١٣] ، أما اللغة العربية فتستعمل اسم سوري للمفهوم العرقي والجغرافي ، واسم سرياني للمفهوم اللغوي والديني .

وللغويين والجغرافيين في سبب تسميته شاماً آراء مختلفة[١٤] ،

---

(٩) فيليب حتي ، تاريخ سورية ولبنان ص ٦٢ .

(١٠) المصدر السابق ص ٦٢ A History of Deeds Done Beyond the Sea, tr. Emily A. Babcock & A.C. Krey New York, 1943 Voli II P. 5.

(١١) M.E.Art., Syria, History.

(١٢) E.britannica, 15th. Edition Art., Syria, Religeous groups

(١٣) M.E. Art., Syriac.

Donner, F. Mc graw, The Early Islamic Conquests, Princeton New Jersey p. 94 (Syriac is a dialect of the Aramaic Language).

أما فيليب حتي فيرى أن اسم سوري Syrian يشير إلى الشعوب التي تتكلم السريانية (تاريخ سورية ولبنان ص ٦٣) .

(١٤) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٢ .

فقيل إنما سميت الشام شاماً لأن قوماً من كنعان نزلوها فتشاءموا إليها فسميت شاماً لذلك[١٥] . وقالت طائفة انما سميت شاماً لما تشاءم لها أهل اليمن من يمنهم كما يقال تيامنوا وتياسروا فسميت لذلك[١٦] ، وقيل سميت الشام شاماً لكثرة قراها وتداني بعضها من بعض، فشبهت بالشامات، أو لأن أرض الشام مختلفة الألوان بالحمرة والبياض والسواد فسمي شاماً لذلك كما يسمى الخال في بدن الانسان شامة[١٧] ، وقد تجمع الشام على شامات[١٨] ، وتسمى بلاد الشام بذلك، كما أن اطلاق الشام على دمشق وارد أيضاً من باب اطلاق العام على الخاص، والعرب كثيراً ما كانوا يسمون المدن القواعد بأسماء أقاليمها، فكانوا يقولون بلا فرق، دمشق أو الشام، الفسطاط أو مصر، شبام أو حضرموت[١٩] .

وكان أول جغرافيين أعطيا للديار الشامية وحدة جغرافية، الإصطخري (ت ٣٢١ هـ) ثم المقدسي (ت ٣٨٠ هـ) إذ عنون الإصطخري الفصل الخاص بالشام بقوله «أرض الشام»، أما المقدسي فقد استعمل «اقليم الشام» قاصداً بذلك وحدة جغرافية، كما أن المقدسي هو أول من تكلم عن التكوين الطبيعي لإقليم الشام

(١٥) المصدر السابق ج٣ ص٣١٢، أبو البقاء عبد الله بن محمد البدري المصري الدمشقي، نزهة الأنام في محاسن الشام، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ ص/١٣/.

(١٦) نزهة الأنام، ص/١٣/.

(١٧) المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تعليق غازي طليمات، ط١٩٨٠م ص/١٤٠/.

(١٨) خليفة بن خياط، تاريخ خليفه، ط١٩٦٧ ص/١٥٧/.

(١٩) كرد علي، خطط الشام ج ١ ص/٤٨/.

فقال : ووضع هذا الاقليم ظريف ، هو أربعة صفوف ، فالصف الأول يلي بحر الروم وهو السهل ، رحال منعقدة ممتزجة يقع فيه من البلدان الرملة وجميع مدن الساحل ، والصف الثاني الجبل ، مشجر ذو قرى وعيون ومزارع ويقع فيه من البلدان بيت جبريل وايلياء ونابلس واللجون وقدس والبقاع وأنطاكية ، والصف الثالث ، الأغوار ذات قرى وأنهار ونخيل ومزارع يقع فيه من البلدان أيْلَه وتَبوك وصغر (زغر) وأريحا وبيسان وطبريه وبانياس ، والصف الرابع سيف البادية وهي جبال عالية معتدلة مع البادية ذات قرى وعيون وأشجار يقع فيه من البلدان مآب وعمان وأذرعات ودمشق وحمص وحلب .

إن هذا الوصف الذي يقدمه المقدسي قريب من الوصف الذي يقدمه علماء الجغرافيا لتضاريس بلاد الشام التي تتألف من المناطق المتميزة التالية إذا ما اخترقنا سورية الطبيعية أو الشام من غربها إلى شرقها .

١ ــ السهول الساحلية

السهول الساحلية الشامية هي بالاجمال ضيقة محدودة لانحصارها بين البحر والجبال الغربية ، ولكنها تتسع في جنوب حيفا فتشكل سهولاً زراعية رحبة ، وقرب الجبال منها يغذيها بالأتربة والمجروفات وبمياه الري ، لكن السيول الهابطة نحو الساحل تجف في الصيف فلا يستفاد منها حين الحاجة إليها ، وهي تفيض في الشتاء فتضر بالزرع ، ولا يمكن استخدامها في الزراعة إلا إذا شيدت لها خزّانات وأقنية .

وتمتاز السهول الساحلية بخصب تربتها ووفرة أمطارها، لذلك فهي صالحة لزراعات متنوعة، لكنها ليست من الاتساع بحيث تكفي سكانها بالمنتوجات الزراعية، ولابد لها من التعامل الزراعي مع بلاد الداخل لتقيم التوازن في مواردها الغذائية[٢٠].

وتبدأ السهول الساحلية في الشمال بسهل الإسكندرون الذي يمتد على أكثر من (٤٨٠٠) كم٢ ثم سهول اللاذقية وجبلة وبانياس، وتمتاز هذه السهول بثرواتها الزراعية، تأتي بعد ذلك سهول لبنان الساحلية، وهي سهول ضيقة لاسيما بين طرابلس وبيروت، فالجبال تقترب من البحر حتى لا تدع بينها وبينه سوى متسع صغير للزراعة[٢١].

وتبدأ سهول فلسطين بسهل عَكّار الذي يتصل به مرج ابن عامر الممتد نحو الداخل والمتميز بتربته السوداء الملائمة لزراعة الحبوب، وعند جبل الكَرمِل يضيق السهل الساحلي حتى لا يبعد عن البحر أكثر من ١٨٠ م، ويعرف السهل الواقع بين جبل الكرمل ويافا باسم سهل سارونه، يليه نحو الجنوب سهل فلسطين العظيم، وجميع هذه السهول مشهورة بخصبها لكنها قليلة المياه، بسبب شح الأمطار، وهي موطن الحمضيات المشهورة في العالم، وسهل فلسطين يتصل عند غزة وبئر السبع بصحراء النَّقَب القاحلة وتزيد مساحتها عن نصف مساحة فلسطين، وساحل فلسطين مستقيم

---

(٢٠) د. رجاء دويدري، جغرافية سورية والوطن العربي، دمشق ١٩٨١ ص ٣٩.

(٢١) حسن سيد أحمد أبو العينين، لبنان، بيروت ١٩٦٨ ص ٩٨.

رملي لا يلائم نشوء المواني‌ء، لذلك كانت أكثر المدن الفلسطينية داخل البر، وهذا هو الفارق بين فينيقيا القديمة وفلسطين، فالأولى تلائم الحياة البحرية والثانية توافق الفاعلية الزراعية، ومرفأ حيفا إنما نشأ بحمى جبل الكرمل، وساعد على نشوء مرفأ يافا عوامل ائتكالية بحرية[٢٢].

منطقة الجبال الغربية

هي منطقة ذات التواءات تتجه بصورة عامة من الشمال الشرقي نحو الجنوب الغربي، ولكن هذا الاتجاه يتبدّل حسب المواقع، وتتناول الصدوع هذه السلاسل الالتوائية في وسطها وعلى جوانبها وأعظمها شأناً صدع طولاني يكسرها في شرقها، فتبدو قممها الشاهقة على طرفها الأيمن، بينما طرفها البحري يهبط متدرجاً ويؤلف أحياناً هضاباً خفيفة التموج تخترقها مجازات عرضانية ضيقة وعميقة وهي في الغالب من عمل الائتكال النهري، وتتقارب رؤوس الأودية أحياناً فلا تترك بينها سوى ظهور أومتون جبلية ضيقة كما هو الحال في لبنان[٢٣]. وقد أثرت وعورة هذه الجبال في مصيرها التاريخي، فكانت ملجأ أميناً للأقليات العرقية والطائفية[٢٤]؛ ولعلّ ما يعكس هذا الوضع وصف ياقوت الحموي لهذه المنطقة بقوله: «ان في هذا الجبل سبعين لساناً، لا يعرف كل قوم لسان الآخرين إلاّ بترجمان[٢٥]».

(٢٢) د. دويدري، المصدر السابق ص ٣٩ــ ٤٠.

(٢٣) المصدر السابق ص ٤١.

(٢٤) حتي، تاريخ سورية ولبنان ص ٣٩.

(٢٥) ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٥ ص ١١.

تبدأ منطقة الالتواءات الغربية في الشمال بجبال الأمانوس التي يقع في وسطها ممر بيلان (٦٨٤ م) يليها نحو الجنوب جبل الأقرع، ثم جبال الساحل السورية فجبال لبنان التي يصل علوها إلى (٣٠٨٨ م) في قمة القرنة السوداء، ثم ينزل الارتفاع في الوسط إلى (٢٦٢٨ م) في جبل صنين وإلى (١٩٥٠ م) في الجنوب في جبل الباروك، والممر الرئيسي الذي يخترق جبال لبنان هو ممر ظهر البيدر (١٥٠٠ م).

تلتحم جبال لبنان بعد مصب نهر الليطاني بجبال فلسطين، وأول جبال فلسطين في الشمال جبل الجليل (قمة جبل الجرمق ١٢٠٨ م) وجبل الكرمل الذي يشرف على مدينة حيفا، وبين مدينة جنين ومشارف القدس تقوم جبال نابلس أو السامرية ثم جبال القدس والخليل، ويعلو جبل الزيتون المشرف على القدس (٨١٥ م). وتنتهي جبال فلسطين جنوباً بمحدوبات صحراء النقب التي تتجه من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي بينما يكون اتجاه جبال فلسطين من الشمال إلى الجنوب[٢٦].

منطقة الوهدة الانهدامية

بين الجبال الساحلية والجبال الداخلية يمتد أخدود طولاني ضيق ناجم عن خسف عميق، وهو جزء من الانهدامات السورية الافريقية[٢٧]، وهذا الأخدود أو الغور لايتشابه في جميع أرجائه مِن

---

(٢٦) د. دويدري — المصدر السابق ص ٤٠ — ٤٢.

Gregory J.W.The Rift Valleys of East Africa, London, 1971, PP. 337-380.

حيث البنية، وشكل السطح ونوع التربة والمناخ، بل ينقسم إلى مناطق متباينة تجتازها أودية متعاكسة في الاتجاه، وهو في الغالب مقعر التوائي متصدع، والصدوع الجانبية ليس لها علو واحد، ففي فلسطين يهبط قعر الغور إلى (٣٩٢ م) تحت سطح البحر في قاع البحر الميت[٢٨]، وعند بعلبك يرتفع حتى (١١٠٠ م) فوق سطح البحر، وفي أمكنة عدة خرجت الحمم من الصدوع وسالت نحو قرارة الغور فخلقت فيه سدوداً طبيعية تجمعت وراءها المياه وشكلت بحيرات، وقد جفّت بعض هذه البحيرات وتركت مكانها رسوبات صلصالية نجدها اليوم في سهل الغاب وسهل العمق، تكسوها طبقة سطحية من الرسوبات النهرية الحديثة وهكذا نجد في الغور صخوراً صلصالية وكلسية وبركانية ولحقية، والاختلاف في أجزاء الغور لايقتصر على الاتجاه والارتفاع ونوع الأرض، بل يتعداه أيضاً إلى المناخ، ففي الشمال تهطل أمطار كافية، بينما الوديان الجنوبية حارة جافة[٢٩].

تبدأ الوهدة شمالاً بمجرى نهر قره صو الذي يلتقي بمياه نهر العاصي في بحيرة العمق، ثم يشغل الوهدة نهر العاصي فيؤلف سهل العمق، فسهل الغاب، ثم سهل البقاع، ويفصل بين حوض الليطاني وحوض الأردن، عتبة بركانية، ثم ينبسط سهل الحولة الذي يرتفع (٧٠ م) يليه بحيرة طبرية التي تنخفض (٢٠٩ م) عن سطح

---

(٢٨) Quennel, A.M.The Structural and geomorphic Evolution of The Dead Sea Rift quart. jour. geol. Soo. ;vol. 114. 1959, P 7.

(٢٩) صلاح الدين بحيري، جغرافية الأردن، عمان، ١٩٧٣ ص ٧٩.

البحر، وينتهي نهر الأردن بالبحر الميت الذي ينخفض سطحه عن البحر (٣٠٩ م)، وفي جنوب البحر الميت يمتد وادي عربة مائلاً من الجنوب نحو الشمال، ويستمر الغور الخسفي في خليج العقبة[٣٠].

منطقة الجبال الشرقية

وهي تراصف الجبال الساحلية على الطرف الشرقي من الوهدة، ولكنها على قربها منها تختلف عنها أشد الاختلاف، فهذه جافة جرداء وتلك مروية مكسوة بالغابات، وهذه متقطعة قليلة الانتظام، وتلك مستمرة إلاّ حين تخترقها مجازات الأنهار، والجبال الغربية أكثر علواً، أما الشرقية فهي أكثر تفرعاً، لأنها ترسل نحو الداخل مجموعة محدودبات تصل حتى نهر الفرات ودجلة وندعوها بالسلاسل التدمرية.

وأول جبال المنطقة الشرقية جبل الأكراد، ويليه نحو الجنوب الشرقي جبل سمعان (٨٧٠ م) ثم جبل الزاوية (٩٣٩ م) فجبال لبنان الشرقية التي يصل ارتفاعها إلى (٢٦٢٩ م) وبعد مقعر الزبداني المنخسف نصل في الجنوب إلى جبل حرمون (٢٨١٤ م) الذي يشاهد في أفق مدينة دمشق وتكلل هامته الثلوج أشهراً من السنة، لذلك يدعى أيضاً بجبل الشيخ.

يتفرّع من الجبال الشرقية محدودبات تشكل مجموعتين، أولاهما تبدأ عند حمص (جبل بَلعاس)، والثانية تتشعب عند دمشق

---

(٣٠) King, L.C. The Morphology of The Earth, Newyork 1962 PP. 293-295.

وتؤلف جبال وهضاب القلمون؛ والمجموعتان تقتربان حول تدمر في البادية السورية حيث نجد جبل البشري (٨٦٠م) الممتد حتى الفرات، ثم جبل عبد العزيز القائم في شمال الجزيرة الفراتية ثم جبل سِنجار في العراق.

وفي الجنوب من غوطة دمشق وجبل حرمون تقوم منطقة بركانية واسعة تشكل اقليماً متميزاً بين الجمهورية العربية السورية والمملكة الأردنية الهاشمية وتتألف من مخاريط بركانية (جبل العرب) يصل ارتفاعها إلى (١٨٠٣م) ومن هضاب وسهول مغطاة بِحرَّات البازلت، (الجولان وحوران) ومن فجوات بركانية وعرة (الصفا واللجاة).

والتواءات المنطقة الجبلية الشرقية تتحول في بلاد الأردن إلى هضبة مرتفعة، وأهم العوارض الطبيعية في هضبة الأردن جبال عجلون (١٢٠٠م) في الشمال وجبال البلقاء (١٠٩٧م) عند السلط وجبال مآب (٩٠٠م) وجبال الطفيلة (١٢٠٠م) ثم جبال الشراة (١٥٠٠م) الملتحمة بجبال السراة في شبه جزيرة العرب[٣١].

منطقة الهضاب والبوادي والسهول الداخلية

ان منطقة واسعة من البوادي تمتد غرب العراق وشرق بلاد الشام، وهي تتحول إلى شبه صحراء في منطقة الحماد، وقد رأينا أن

(٣١) صلاح الدين بحيري ــ جغرافية الأردن ص ٩٣.

سلسلة الالتواءات تجتاز بوادي الشام من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي بادئة من القلمون ومنتهية عند الفرات ودجلة أطلق عليها الجغرافيون اسم السلاسل التدمرية .

ولا تخلو البادية الشامية من نتوءات بركانية مبعثرة ، كما يتخللها شبكة من الأودية الجافة والسبخات ، مما يدل على أن المناخ كان قديماً أكثر أمطاراً والسيول أكثر انتشاراً وأغزر ماء . وحتى في صحراء الحماد نجد عدداً كبيراً من الأودية المتجهة نحو الفرات ، يتخذ منها البدو ممرات لنجعاتهم ، والمناطق المأهولة بشكل ثابت هي بعض الواحات ذات المياه الباطنية كتدمر مثلاً ، ويطلق البدو على هذه الواحات اسم المناظر ، وعندما يخترق هذه السهوب نهر أو ينبوع أو تتوافر فيها الأمطار تنقلب إلى سهول مزروعة ، كما هو الحال في غوطة دمشق وسهل حمص وسهول حلب وأطراف نهر الفرات وسهول الخابور في منطقة الجزيرة .